

- الهممة والمروءة -

لماذا أشكل الإنسان المعاصر على ذاته؟ وكيف له الخروج من سراديب غفلته إن لم يترفع عن دنان شهواته المادية. ويسعى بين النور والضوء ليستضيء بما يجعله يأنس بذاته وبربه بعدما تاه طويلا وراء نزوات ترايبته وبهتان طينه. حتى بات ضائعا بين تراب الصلصال وماء الغفلة والأثرة والأنانية. ففقد اعتزازه بنفسه وانتماءه إلى مجتمعه وحبه لإنسانيته وشوقه إلى باريه.

هل فقد الإنسان همته التي تجعل منه سهما من نار ونور منطلقا دائما إلى أعلى عليين؟ أم أنه استطاب الراحة والإباحة فانتكس وغرق في رمال عجزه وارتكس وضاع في سراب أوهامه؟

قال لقمان الحكيم: الهممة تلقح الحظ فينجب توأمين، الغنى والمجد.

وقال أعرابي: الهممة جناح الحظ، يعرج بها من منزلة إلى منزلة.

وقال عمرو بن العاص: عليك بجسام الأمور فكل إنسان له مكانه البعض كالديدان مكانه التراب والبعض كالصقور ملاعبه الأجواء الفسيحة.

أما أنا فأقول: الناس نوعان نوع يملك أخلاق الفرسان ونوع يملك أخلاق العبيد. أما الفرسان فهم أولئك القوم الذين قال فيهم المتنبي:

وإني من قوم كأن نفوسهم بها أنف أن تسكن اللحم والعظاما

فهم دائما في سباق مع المروءة والشهامة ومواقف الشرف والإباء، نذروا أنفسهم للفضائل العفوية فتجوهروا بنور العقل ومروءة النفس بعد أن أشاحوا بوجوههم عما يشدهم إلى صلصال ترايبتهم المرأة والمال.

وأما العبيد فهم الناس الذين الغاية عندهم تبرر الوسيلة. غايتهم الراحة والإباحة والإستقواء بالمال والنفوذ. ووسائلهم تتذبذب بين ميكيا فيلية تعتمد الخداع والمراوغة

أو برغماتية تعتمد التلوّن بألوان الظروف والمناسبات. أو ديكتاتورية تعتمد الظلم والإستبداد.

قال عمر بن الخطاب: لا تصغرن همتك فإني لم أر أقعد بالرجل من سقوط همته.
وقال معاوية بي أبي سفيان: ثلاثة أمور لا تدرك إلا برفع الهمة. سياسة الدولة
وتجارة البحر ومناجزة العدو، والعدو الأكبر هو شهوات النفس وجشعها وطمعها.

وقال الشاعر ابن نباتة في استنهاض الهمم:

حاول جسيمات الأمور ولا تقل إن المحامد والعلی أرزاق
وارغب بنفسك أن تكون مقصرا عن غاية فيها طلاب سباق

وقال أمير تنوخي: المرء حيث يضع نفسه، إن رفعها ارتفعت وإن قصر بها
اتضعت.

وما المرء إلا حيث يجعل نفسه ففي صالح الأخلاق نفسك فاجعل

سئل لقمان من هو أتعس الناس فقال: رجل إتسعت معرفته وبعدت همته وضافت
يده.

سأل الأصمعي إعرابيا من طيء عن صفات حاتم فقال: كان يرمي بهمته حيث
يشير إليه الكرم، يتحسس مرارة الإخوان ويسقيهم عذبه، له همة تناطح النجوم وكرم
يشامخ الغيوم ثم أنشد:

وهمة تجلت عن أن يقال لها كأنها وتعالّت عن مدى الهمم

فأجاب الأصمعي بعد ذلك: ليس عجبا أن ينقش اسمه في سجل الخالدين.

وقال المتنبي:

تجمعت في فؤادهم همم ملء فؤاد الزمان إحداها

وإذا ما علمنا أن المتنبي بهذه القصيدة كان يمدح أحد أمراء آل تنوخ وإذا ما علمنا أن الموحدين الدروز في جبل لبنان ووادي التيم بأغليبتهم يتحدرون من قبائل تنوخية علمنا أن الجذور زكية مباركة بالشجاعة والمروءة والعفة والإعتزاز وما علينا إلا أن نقول بلساننا وقلوبنا وجميع أركاننا "من الجذور الذكية ينبت الشجر".

وهكذا فرجاء المقامات العالية يتطلب علما وعملا وإرادة لا تعرف الكلل أو الملل ولا ترضى بالإنتكاس أو الإرتكاس.

قال أبو تمام:

ما أبيض وجه المرء في طلب العلى حتى يسود وجهه في البيد

وقال آخر:

وتحمل المكروه ليس بضائر ما خلته سببا إلى محمود

ففي هذا لا بدّ دون العسل من إبر النحل. فالرجل الشريف لا يأخذ من الدنيا إلا بقدر ما يعطيها وإلا اعتبر طفيليا.

قال المتنبي:

تلذ له المروءة وهي تؤذي ومن يعشق يلذ له الغرام

أما أبو فراس فقال في نفس المعنى وهو أن المقام الشريف ثمنه تحمل الأهوال والوقوف فوق أنف المخاطر.

تهون علينا في المعالي نفوسنا ومن يخطب الحسنا لم يغله المهر

ولهذا كانت المذمة الكبرى عند سراة القوم أن يظهر الرجل ولا همّ له إلا الفائين الفم والفرج. فهذه برأيهم صفة الرجال الذين سقطوا من مرتبة الإنسان إلى المرتبة البهيمية.

قال الفرزدق في هجاء قوم جرير:

إنّي رأيت من المكارم حسبكم
فإذا تذوكرت المكارم مرة
أن تلبسوا خزّ الثياب وتشبعوا
في مجلس أنتم به فتقنعوا

وقد عدّ العرب في العصر الأموي التأنق في الثياب ميزة العبيد والغلمان يأنف منها أصحاب الحمية والمروءة.

إذا الفتى لم يبيغ إلا ثيابه
ومطعمه فالخير منه بعيد

أما المتنبي فكانت همته أكبر من الثروة والملك لأنه كان يريد أن يهدم حائط المحدود للنفوذ إلى اللامحدود المطلق.

أي محل أرتقي
أي عظيم أتقي
وكل ما خلق الله
وما لم يخلق
محتقر في همتي
كشعرة في مفرقي

وعلو الهمة والمروءة مرتبطان بسلم القيم وفلسفة العقد الإجتماعي فالمجتمع الذي يعتبر أن السعادة في جمع الثروات وتكديس الرساميل والشرب من بحر الملذات والرغبات هو مجتمع مكيفيلي، الغاية عنده تبرر الوسيلة. وبالتالي لا تعود الحياة بالنسبة إلى أفراده ووقفة صدق مع الذات ومع الآخرين ووقفة عدل في التعامل مع الذات ومع الآخرين ووقفة اعتزاز يقفها المرء مع ذاته بالترفع عن صغائر الأمور

والرغبات الدنيئة الأنانية التي تتناقض مع قوانين العقل وقوانين الطبيعة. وهي غالباً ما تكون على حساب مصالح الآخرين وكراماتهم. هكذا مجتمع ذئبي المنطق فيه هو منطق القوة وليس منطق الحقيقة.

أما مجتمع الحق والخير والعدل والتواصل مع الله فهو المجتمع الذي يفهم أن السعادة هي الإنسجام والتناغم مع منطق العقل وقوانين الطبيعة، مجتمع يوظف القوة في الذود عن كرامة الناس وتطوير المجتمع نحو مزيد من الإرتقاء الفكري والعملية. فقوة المال توظف في خلق فرص عمل جديدة للأجيال الجديدة. وقوة العلم توظف في مزيد من النمو الإقتصادي والأكاديمي وهكذا دواليك.

قال أبو دلف العجلي.

وتظل معتكفا على الأقداح
خلقوا ليوم كريهة وكفاح

ليس المروءة أن تبيت منعما
ما للرجال وللتنعم إنما

وقال الأحنف: إياك والكسل والضجر فإنك إن كسلت لم تؤد حقاً. وإن ضجرت لم تصبر على حق. ولكن الناس حسب جواهر نفوسهم فصاحب النفس النارية تتجذب نفسه بطبيعتها إلى البطولات والمكرمات ومراتب الشرف. وصاحب النفس النورانية تتجذب نفسه بطبيعتها إلى المعرفة والكليات المجردة والتأمل في الموجودات لأخذ العبر التي توصلها إلى الموجد رب العالمين. أما صاحب النفس الترابية فهي تتجذب بطبيعتها إلى الشهوات البهيمية والراحة والإباحة حيث الخمول سيذا والخديعة مبدأ وتسمية الأشياء بغير أسمائها فيصبح التذاكي ذكاء والمراوغة سياسة والنقل إبداعاً والثرثرة فصاحة والغموض بلاغة.

كمال يوسف سري الدين